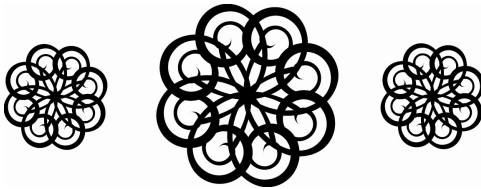


الفصل الثاني

خصائص البديل الحضاري



obeikandi.com



تمهيد

بعد أن استعرضت في الفصل الأول وضع الحضارة الغربية ، والحال الذي صارت إليه ، ومدى جنايتها على الإنسان والحياة الإنسانية ، أصبح في حكم المؤكد أن يقفز إلى الذهن هذا السؤال: وهل من بديل ؟

وإذا كان هذا البديل موجوداً فما مواصفاته؟

وما خصائصه التي تؤهله لرفع اللواء ، وحمل الراية ، وتحمل المسؤولية ؟

وهو تساؤل يأتي في موضعه تماماً ، إذا لابد من بديل ؛ لأن الوضعية القائمة أصبحت تضغط - وبشدة - على وجدان الإنسان، وتدوس قيمه، وتنهش ثوابته ومسلماته، وتجس فطرته النقية وراء قضبان حديدية ، فلا يعرف للحرية معنى ، ولا يكاد يذوق للسلامة والأمن طعماً . واستمرار هذه الوضعية الشاذة ، يسوق الإنسانية بخطى ثابتة نحو الهاوية التي تفغر فاهها ، في انتظار فريسة شهية يزيد تعدادها على ستة مليارات من البشر ، هم ضحايا تلك الحضارة الموبوءة ، فلا بد إذن من بديل يتمتع بصفات أخرى ، ويتميز بسمات عليا يتقدم ؛ ليحمل الراية ، ويرفع اللواء ، ويقود ركب البشرية بخطى واثقة ؛ بيدين : إحداهما ترفع الراية ، والأخرى تحمل منهجاً ، وبقدمين : إحداهما تخطّ على الأرض والأخرى تطأ السماء ، ومع كل ذلك قلب يخلّق في آفاق عليا لا يطار لها على جناح ولا يسعى إليها على قدم .

إن البشرية اليوم تعيش في بحر لجى يغشاه موج من فوقه وهي في حاجة إلى سفينة للنجاة ؛ لتقوم بأكبر عملية إنقاذ عرفتها البشرية في حياتها ، والصفحات القادمة تبرز خصائص هذا البديل ، لتقبل البشرية عليه بنفس راضية وقلب مطمئن .



الخصيصة الأولى بديل ربانك المصدر

هذه هي أول خصائص البديل المطلوب ، وليس هي أول خصائص فقط ، بل هي أعظمها كذلك ؛ إذ لا بد أن يكون البديل من مصدر آخر غير تلك المصادر التي تستقى منها النظم والتصورات القائمة ، ومعنى ربانية المصدر : أنه نزل من السماء ولم ينبت من الأرض ، وأنه من عند رب الناس لا من عند الناس جاء ، وأنه - كذلك - لم يأت نتيجة لإرادة فرد ما أو أسرة ما أو مجتمع ما ، ولكنه جاء فقط ، نتيجة لإرادة ملك الناس الذي يريد لهم الخير ، ويطلب لهم الرشد ، ويرجو لهم الهدى والرحمة والسداد والرشاد ، لا في الدنيا فقط ، بل في الدنيا والآخرة ، إن هذه الخصيصة عندما تتحقق في البديل ، فإن لها في حياة الناس ثماراً لا تدانى ، وقطوفاً متنوعة ، تميز هذا البديل عن غيره من التصورات والأوضاع القائمة ، وأبرز هذه الثمرات مايلي :

1 - التمام والكمال :

عندما يكون البديل ربانياً في مصدره ، فإن ذلك سيحقق له صفة لا تتوافر في غيره وهي التمام والكمال ، فكل نظام أو وضع لا يتمتع بهذين الوصفين ، فهو ناقص ، وسيعود نقصه على البشرية بضرر ماحق ، وخطر مؤكد ، ولذا نلاحظ أن الله سبحانه عندما أراد أن يمتن على المؤمنين - وله الفضل سبحانه والمنة - قال مذكراً لهم بنعمة تمام الدين وكمال المنهج : ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾⁽¹⁾ . والشئ الكامل هو الذي لا يقبل الزيادة ، والتمام هو الذي لا يدخله نقص ، وكلا الوصفين لا وجود له في مناهج الأرض ، وأوضاع البشر ، فهي لا تخلو أبداً من حاجة إلى زيادة عليها أو نقص منها ، فكل (ما يصنعه البشر ويشرعونه ، فإنه لا ينفك من معانى النقص والهوى والجهل والجور ؛ لأن هذه المعانى لا صقة بالبشر ، ويستحيل تجردهم عنها كل التجرد ، وبالتالي تظهر هذه النقائص في القوانين والشرائع التي يصنعونها)⁽²⁾ .

(1) المائدة : 3

(2) أصول الدعوة ، ص 47 ، د . / عبد الكريم زيدان ، ط 3 ، سنة 1987 ، مؤسسة الرسالة .

أما ما كان من عند الله ، فهو كامل يستمد كماله من كمال الله سبحانه ، لأن صفات الصانع ، تظهر حتماً آثارها في صنعته ، فإذا أنزل الله سبحانه لعباده ديناً ، ورضى لهم شرعاً ، فهو لا شك أثر من آثار كماله سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله ، وصدق الله سبحانه إذ يقول : ﴿ صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً ﴾⁽¹⁾.

2- عدم التناقض :

وهذه ثمرة أخرى للبديل الحضاري عندما يكون ربانياً ، وهو مع هذه الثمرة سيكون خالياً من كل تناقض ، سليماً من كل تعارض ، بريئاً من كل تضارب ، والله سبحانه يؤكد هذه الحقيقة بقوله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾⁽²⁾ . فهذه الصفة وحدها -وهي ربانية المصدر - هي التي تضمن خلو البديل من التعارض ، وبراءته من التناقض ، أما ما كان من صنع البشر ، ومن وضع البشر ، فإنه لا يسلم من نقص البشر ، ولا ينفك أبداً عن صفات البشر ، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : (فما من نظرية بشرية ، وما من مذهب بشري ، إلا وهو يحمل الطابع البشري ؛ جزئية النظر والرؤية ، والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية ، وعدم رؤية المتناقضات في النظرية أو المذهب أو الخطة التي تؤدي إلى الاصطدام بين مكوناتها - إن عاجلاً أو آجلاً - كما تؤدي إلى إيذاء بعض الخصائص في الشخصية البشرية الواحدة ، التي لم يحسب حساب بعضها ، أو في مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحد منها إلى عشرات ومئات من النقائص والاختلافات الناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود ، ومن الجهل البشري بما وراء اللحظة الحاضرة ، فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة - في أي لحظة حاضرة -)⁽³⁾

أما منهج الله وحده ، فهو شيء غير ذلك وفوق كل ذلك ؛ لأنه أولاً وآخراً : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾⁽⁴⁾ .

(1) البقرة : 138 .

(2) النساء : 82 .

(3) في ظلال القرآن ، ج2 ، ص722 ، سيد قطب ، مصدر سابق .

(4) فصلت : 42 .

3 - البراءة من التحيز :

وكذلك يتميز البديل الحضاري - عندما يكون ربانياً - بخلوه من كل أشكال الهوى، وسلامته من كل أنواع الميل والتحيز ، وهذا بالقطع لا يتحقق إلا إذا كان البديل من عند الله سبحانه ، أما إذا كان من عند بشر ، فإن البشر لا يخلو - إلا إذا كان بشراً رسولاً - من التأثير بالهوى ، والميل وراء المصالح الشخصية ، والنزاعات الأسرية والعرقية ، وكل واضح نظام يحرص - لاشك - فيه على مصلحته أو مصلحة أسرته ، أو مصلحة مجتمعه أو مصلحة جنسه ، إلى آخر تلك الروابط التي تشد الإنسان إلى غيره ، أما منهج الله سبحانه فهو شئ آخر ، فقد وضعه رب الناس للناس ، وضعه من لا يتأثر بالزمان والمكان ؛ لأنه خالق الزمان والمكان ، ومن لا تحكمه الأهواء والنزعات ؛ لأنه المنزه عن الأهواء والنزعات ، ومن لا يتحيز لجنس ولا لون ولا فريق ؛ لأنه رب الجميع ، وكلهم عباده ، فلا يتصور تحيزه لفئة دون فئة ، ولا لجيل دون جيل ، ولا لشعب على حساب غيره من الشعوب ⁽¹⁾ .

هذا هو البديل الحضاري ، وتلك سمته عندما يكون ربانياً ، وصدق الله العظيم : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ⁽²⁾ .

4 - سهولة الانقياد له :

وعندما يكون البديل ربانياً فإنه لا شك سيلقى من الاحترام ، وسهولة الانقياد ما لا يلقاه غيره ، وهذا ما يلاحظ في كل القوانين والمبادئ والنظم التي يضعها البشر ، فهي لا تحظى إلا بالقليل من الاحترام - إن كان لها في الأصل احترام - لأنها تفتقد إلى حارس يجرسها داخل النفس ، حيث لا سلطان هناك إلا سلطان العقيدة وعسكر الإيمان ، وهذا ماتوفره الربانية للبديل الحضاري ، حيث إنه من عند الله سبحانه ، ومن هنا يحترمه الناس إيماناً ، ويلتزمون به تعبداً ويقومون على حراسته في النفس والمجتمع احتساباً لله عز وجل ، وحسبنا هنا أن نذكر مثلاً واحداً على مدى ما يتمتع به الشرع

(1) الخصائص العامة للإسلام ، ص 51 ، د/ يوسف القرضاوى ، ط2 ، سنة 1983 م ، مؤسسة الرسالة .

(2) الجاثية : 18 .

من احترام وتعظيم عندما يكون ربانياً ، حيث حرم الإسلام الخمر واقتلع جذورها بآية واحدة وهى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَفْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ⁽¹⁾ . فى حين عجزت فى الحاضر أمريكا ، بكل ماتملك من جنود وأساطيل ، وأجهزة ووسائل ، وبكل ماأنفقت من مال وجهد ووقت ⁽²⁾ ، عن أن تفضم شعبها عن تلك الموبقة ، ورضخت فى النهاية لأهواء الناس ، فأجرت لهم الخمر يعبون منها إذا أرادوا فى أى وقت شاءوا ، لتبقى كلمة الله هى الأقوم قليلاً ، والأهدى سبيلاً ، والأبقى أثراً ، والأعمق تأثيراً .

5 - تحرير الإنسان من العبودية :

وعندما يكون البديل - كذلك - فإن أعظم ثمرة تنتج عنه وقتها ، هى تحرير الإنسان من أسر العبودية ، وإطلاق روحه وبدنه من سجن الرق ، وذلل الاستعباد ، فالعبودية أشكال متعددة ، وألوان متنوعة ، وأشد أنواعها خطراً على وجدان الإنسان ، واستهانة بعقله هو أن يخضع لغيره من الناس يحل له ويحرم عليه ، إذا أمره يأتمر ، وإذا نهاه ينتهى ، وهذا لون من ألوان العبودية لا يجوز إلا لله سبحانه ، فهو وحده الذى يملك حق التشريع تحليلاً وتحريماً ، أمراً ونهياً ، إباحة ومنعاً ، وهو وحده (الذى يحق له أن يسن التشريعات والقوانين التى يخضع الناس لها فى حياتهم الخاصة والعامة التى تحكم المجتمع الإنسانى ، وهذا الحق أمر بدهى فى حس المسلم وتصوره ، ذلك أن هذه الأرض التى يعيش عليها جزء من مملكة الله فى كونه الواسع ، والعباد الذين يدبون عليها هم من صنعه وتكوينه وخلقهم ، فهو ربهم وإلههم وسيدهم ، ومن حقه أن يشرع لهم ، فما هم إلا عبيده ومماليكه ، ومن ناحية أخرى فإن تشريعه لعباده هو التشريع الذى يصلح عباده ؛ لأنه محكم كامل) ⁽³⁾ .

(1) المائدة :90 .

(2) انظر تفصيل ذلك فى : الإيمان والحياة ، ص204 ، د/ يوسف القرضاوى ، ط8 ، سنة 1987 م . مكتبة وهبة .

(3) الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية ، ص165 ، عمر سليمان الأشقر ، دار الفرقان ، بدون .

فالتشريع إذن حق لله سبحانه وحده ، ومن اتبع مشرعاً غير الله ، فقد عبده من دون الله ، وهذا المعنى وارد وواضح في ذم الله تعالى لأهل الكتاب عندما قال سبحانه : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

ومن هنا عندما يكون البديل ربانياً فهو يضمن للإنسان عدم الخضوع إلا لله سبحانه ، وتلك هي الحرية في أسمى معانيها ، وأكمل صورها. هذه هي الثمرات التي تتحقق عندما يكون البديل رباني المصدر ، وهو الأمر الذي لا يتوفر اليوم لمنهج غير الإسلام ، فكل مناهج البشر اليوم لا تخرج عن كونها إما وحياً محرفاً ، أو ضعاً بشرياً ناقصاً وقاصراً ، أما الإسلام وحده فهو منهج الله سبحانه الذي تعهد بحفظه كاملاً ، لا يقبل الزيادة ، وتاماً لا نقص فيه ، وصدق الله سبحانه إذا يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (2) .



(1) التوبة: 31 .

(2) الحجر: 9 .



الخصيصة الثانية بديل ربانى الوجهة

أما الخصيصة الثانية التى ينبغى أن يتمتع بها البديل الحضارى ، فهى أن يكون ربانى الوجه بعد كونه ربانى المصدر ، وربانية الوجهة تعنى أن يكون البديل دافعاً للإنسان نحو هدف واضح ، وموجهاً له نحو غاية محددة ، ذلك الهدف هو حسن الصلة بالله تعالى ، وتلك الغاية هى الوصول إلى رضوانه ، هذا هو الهدف الأسمى ، والغاية الأعلى للبديل الحضارى ، أن يأخذ بيد الإنسان إلى خالقه ، ويقوده بتؤدة ورفق نحو بارئه ، فيحقق بذلك الغاية من وجوده ويفقه سر هذا الوجود ، إن الإنسان لم يخلق للطعام والشراب ، ولم يخرج للهو والعبث ، وإلا لا ستوى فى ذلك مع مخلوقات أقل منه شأنًا ، وأحط منه منزلة ، وإنما خلق لغاية أسمى وأعلى ، هذه الغاية لا يوضحها للإنسان سوى بديل حضارى ، يحدد الوجهة الصواب ويتخير الغاية المناسبة ، ويكملها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁽¹⁾.

- وكون البديل المطلوب ربانى الوجهة يحقق للإنسان وللإنسانية - كذلك - عدة ثمرات وهذه إشارة إلى أهمها:

1 - إدراك سر الوجود :

وهذه ثمرة لا تقدر بهال ، ولا تقاس بها أموال الأرض ، وكيف لا وكثير من الناس لا يدرك لوجوده حقيقة ، ولا يعرف حياته معنى ؟
يحيا ويموت وهو يتساءل : من أين جئت ؟ ولماذا ؟ وإلى أين المصير ؟
وهذا الصنف من الناس لا شك يعيش فى عماية ، ويموت فى ضلالة ، ويبعث يوم القيامة حيران القلب كما كان فى الدنيا إذ يقول : ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾⁽²⁾.

(1) الذاريات: 56.

(2) الإسراء: 72.

إن أعظم أسباب الضلال وفقدان الرشد في فترات مختلفة وطويلة في حياة البشر ، هو بعدهم عن المنهج الرباني الذي يجب لهم عن تلك الأسئلة الأبدية حتى قال قائلهم شكاً وارتياباً وضلالاً :

لبست ثوب العيش لم استشر وحرث فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم أدر لماذا جئت؟ أين المفر⁽¹⁾

إنه العمى والخيرة والضلال والتخبط ، والبديل الرباني وحده هو الذي يملك الجواب الواضح لكل تلك التساؤلات الحائرة حيث يقرر.. ويكرر.. دائماً أن الله وحده هو الذي خلق ، فمنه كانت البداية ، وخلق لغاية واضحة حددها بقوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁽²⁾ .

ثم يكون المصير إليه في نهاية المطاف يقول سبحانه : ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾⁽³⁾ فإذا أدرك الإنسان ذلك فقد أدرك سر وجوده ، وغاية خلقه ، وعندها يعيش في نور من ربه ، وهداية من أمره ، وإدراك لمصيره .

2 - الانسجام مع الفطرة :

وحين يكون البديل الحضاري رباني الوجهة فإنه - كذلك - يهدي الإنسان إلى فطرته ، ويرده إلى طبيعته وجبلته ، وهذا كسب لا شك لا يستهان به؛ لأنه يحقق للإنسان ثمرات يانعة ، حيث التوافق مع النفس ، والانسجام مع الفطرة ، ولا يدرك النعمة في ذلك إلا من فقد أمن النفس وسلام الضمير .

إن الاهتمام إلى الفطرة هو الذي يحقق هذا السلام داخل النفس ، وهو الذي ينبت معاني الأمن والاستقرار في أعماق القلب ، يقول سبحانه : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾⁽⁴⁾ .

(1) انظر : الخصائص العامة للإسلام ، ص 12 ، د/ يوسف القرضاوى ، مصدر سابق ، بتصرف .

(2) الذاريات : 56 .

(3) النجم : 42 .

(4) الروم : 30 .

وهذه الفطرة فيها فراغ لا يملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة ولا طعام ولا شراب ، وإنما يملؤه فقط توجه الإنسان إلى ربه إيماناً به ، وتسليماً لأمره ، والتزاماً بشرعه ، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات ، لم يطمئن ولم يسكن ؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة ، من حيث هو معبوده ومحجوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة ، وهذا لا يحصل إلا بإيمانه بالله ، فإنه لا يقدر له على تحصيل ذلك السرور والسكون إلا الله)⁽¹⁾ .

إن الإهتمام للفطرة إذن معناه أن يجد الإنسان نفسه ، فيجد معها الأمن والاستقرار فإذا لم يعرف إلى نفسه طريقاً ، ولم يهتد إلى فطرته سبيلاً فهو إذن الشقاء والألم ، والحسرة والعذاب .

3 - السلامة من التمزق :

إن الإنسان إذا عرف غايته واهتدى إلى فطرته ، فإنه بذلك يضع يده على مفتاح السعادة ، ويمسك بأسباب الأمن والراحة والسلامة ؛ ذلك لأن الإنسان تتوزعه اهتمامات شتى ، وتتنازعها غايات متعددة ، وهو في محاولاته الدائمة للتوفيق بين غاياته واهتماماته لا يجني سوى التمزق والتشتت ، كمن يعبد آلهة متعددة ، فهو يشقى في محاولاته إرضاء كل إله على حدة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾⁽²⁾ هذا المثال المر يصور شقاء الإنسان عندما تتعدد غايته ، وتتنوع اهتماماته ، ويتخذ لنفسه أرباباً عدة ، وهو بالضبط ما يحدث للإنسان في ظل هذه الحضارة المعاصرة ، فلم يجن من ورائه سوى الشقاء والألم والقلق والحيرة ؛ لأنه ضل الطريق وفقد الغاية ، أما البديل الرباني فإنه وحده هو الذي يمنح البشرية هداها (والمؤمن وحده هو الذي يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قدر

(1) العبودية ، ص 54 ، المكتبة القيمة ، بدون .

(2) الزمر : 29 .

من أقدار الله، المؤمن هو الذي يحس تلك الحالة النفسية التي تجعله مستريح الفؤاد منشرح الصدر، غير متبرم ولا ضجر ولا ساخط على نفسه وعلى الكون وعلى الحياة، ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه، وعن الوجود العام من حوله، ومنشأ ذلك رضاه عن مصدر الوجود كله، وينبوع هذا الرضا هو الإيمان بالله رب العالمين⁽¹⁾. إن الإيمان بالله سبحانه يجمع النفس من فرقة، ويلملم القلب من شتات، وكفى بها راحة لا يشعر بها ولا يدرك قيمتها إلا المسلم الذي أسلم وجهه لله سبحانه، فأدرك بذلك غايته وفقه سر وجوده.

4- الانتصار على النفس :

وحين يكون البديل الحضاري رباني الوجهة كذلك، فإن من أعظم ثماره أنه يطلق النفس الإنسانية من قيودها، ويحررها من كل أغلال الهوى وشهوات النفس؛ ذلك لأن البديل الرباني يربي الإنسان على أبعاد أخرى، ويعدّه إعداداً خاصاً، بحيث يصبح إيمانه و يقينه هما الضابطان لتصرفاته، والرقيبان على كل عمل يصدر منه، ومن هنا قد تعرض للإنسان الرباني شهوة حرام في غياب الرقيب من البشر، ولكنه بموجب الإيمان المستقر في أعماق نفسه والمكنون وراء ضلوعه، يترك ذلك حياء من الله سبحانه، وقد يتاح له كذلك المال الحرام بكل وسائله دون رقيب - كذلك - من البشر، ولكنه بدافع من الإيمان المكين في أعماق نفسه يتركه حياء من ربه وخوفاً لمقامه، وقد .. مواقف كثيرة، ومواطن متعددة تثبت فيها ربانية الوجهة أنها عاصم من كل إثم، وأمان من كل انحراف، يرقى بالإنسان ويسمو إلى مقامات عليا، ومنازل سامية، مع الاحتفاظ بإنسانيته الكريمة، وبشريته النظيفة، على أنه يجب أن ننبه إلى أن الإنسان حين يرتقى هذا المرتقى العالی، فليس معنى ذلك أنه أصبح ملكاً لا يخطئ؛ لأن هذا لا يتفق لبشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق - ماعدا الأنبياء - إنما المقصود أنه لا يستقر على خطأ، ولا يدوم على خطيئة، فإذا ألمّ بشئ من ذلك انتفض كعصفور بلّله القطر، وذكر ربه فتحات عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة ورقها، يقول الله سبحانه:

(1) الإيمان والحياة، ص 118، د. / يوسف القرضاوى، مصدر سابق

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (1).

فليس عجباً إذن (أن يتورط الإنسان في معصية الله وتغلبه شهوته وهواه ،فقديماً عصى آدم أبو البشرية ربه ،وغرَّه الشيطان حتى ارتكب ما نهاه الله عنه من الأكل من الشجرة ، ولكنه كأسرع ما يكون تاب وأناب وقرع باب ربه بالاعتراف والاستغفار) (2) وهذا هو مفرق الطريق بين إنسان ربانى الوجهة وإنسان لا وجهة له .

هذه هى الثمرات التى يحصلها الإنسان فى ظل البديل الربانى وهى - كما هو واضح - ثمار لا يستهان بها ؛ لأن تحصيلها يجمع على الإنسان شمله ،ويجعل همه واحداً ، ومن ثم تستقر نفسه من قلق ، ويطمئن قلبه من حيرة ، فيعيش فى سلام مع نفسه ، و سلام مع أسرته ، و سلام مع مجتمعه ، ثم السلام الأكبر مع الإنسانية من حوله .



(1) الأعراف : 201 .

(2) الخصائص العامة للإسلام ، ص 19 د. / يوسف القرضاوى ، مصدر سابق .



الخصيصة الثالثة ديل إنسانك النزعة

وإذا كنا نؤكد على ضرورة أن يكون البديل الحضاري ربانيًا في مصدره من جهة، وربانيًا في وجهته من جهة أخرى، فلا بد أن نؤكد على نفس المستوى على ضرورة أن يكون كذلك إنسانيًا في نزعته، ومعنى ذلك أن يكون للإنسان فيه مكان واضح، ومكانة بارزة، في أهدافه وغاياته، باعتبار أن الإنسان هو محور هذا الوجود، وواسطة عقده، فهو المخلوق المكرم، والمكلف والمستخلف في الأرض للعبادة والعمارة على السواء، ومن ثم فإن البديل الحضاري، لا بد أن يكون خطابًا للإنسان، موجهًا إلى الإنسان، مراعيًا في الإنسان مركزه في الوجود ومكانته في الخليقة، وكل بديل ليس على هذا المستوى في الخطاب، فإنه سيضر بالإنسان، ويضر بوجوده، ويجعل حياته على الأرض عبثًا بلا حكمة، وتعبًا بلا راحة، وفوضى لا تحكمها غاية، ولا يضبطها هدف.

حضارة الغرب؛ والنظر إلى الإنسان:

إن نظرة الحضارة الغربية للإنسان لا تصلح أن تكون نموذجًا يحتذى أو يقاس عليه؛ ذلك لأنها تتميز بقصور شديد في رؤيتها للإنسان، وفي نظرتها للوجود ومركز الإنسان فيه، ولعل أبرز مظاهر القصور في تلك الرؤية يتمثل في عدد من النقاط يمكن تلخيصها في الآتي:

1- إهمال الروح:

إن الإنسان -كما هو معلوم- مزدوج الطبيعة ثنائي التركيب والتكوين، فهو مادة وروح، مادة من طين الأرض، وروح علوية من الله سبحانه، هكذا خلقه ربه وفطره بارؤه، وهكذا يجب أن ينظر إليه، لكن الحضارة الغربية في عورها تركز على جانب واحد في الإنسان هو الجانب المادي فقط، ولم تحترق حجاب المادة الكثيف لتنفذ إلى الروح الشفاف، وهذا هو دأؤها الأكبر وعلتها القاتلة، ومن هنا فإن البديل المطلوب ينبغي أن يقدم للجسد غذاؤه في ذات الوقت الذي لا يهمل غذاء الروح المتمثل في وحي السماء.

2- إغفال المصير:

وتلك علة-من كثير- تصيب النظرة الغربية للإنسان في مقتل، فهي تهتم بالإنسان في إطار هذه الحياة فقط؛ لأنها لا تدرك-أو لا تؤمن-أن وراء هذه الحياة حياة أخرى هي أسمى وأعلى، وأشرق وأكرم، ومن هذا المنطلق كثيراً ما تنتهي نظرة الإنسان الغربي للحياة على أنها سخافة لا معنى لها ولا هدف من ورائها، فالإنسان يعيش دون إرادته، ويموت حتف أنفه، فتطوى صفحته، وتنتهي حياته، ولهذا كان لا بد في البديل المطلوب أن يؤمن للإنسان نظرة أخرى، تجلّ له حقيقة الوجود، والحكمة من ورائه، والمصير الذي ينتهي إليه، فيعيد للحياة معناها، وللوجود أهميته وضرورته.

3- نسيان العبودية لله سبحانه :

ومن آفات النظرة الغربية للإنسان كذلك أنها تعامله -أى الإنسان- على أنه سيد مطلق في هذا الوجود ، ولا رقابة عليه بل هو الرقيب والحسيب ، بل إنها تضيف عليه صفات الألوهية وخصائصها ، ومن ثم تمنحه رخصة بأن يفعل ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، ولم لا؟ وهو في تلك الرؤية سيد لا يسأل عما يفعل ، أما البديل المطلوب فهو الذى يوفق بين مفهوم سيادة الإنسان فى الأرض ، ومفهوم عبوديته لله تعالى ، فهو الذى خلق الإنسان ، وخلق له مهام واضحة تدور على أسس ثلاثة هى : العبادة والخلافة والعمارة .

4- الغرور بالعلم⁽¹⁾ :

ومن آفات النظرة الغربية للإنسان -أخيراً- ذلك الغرور الذى تتسم به هذه النظرة ، حيث الإعجاز والإنجاز ، فهى الحضارة التى قهرت الطبيعة ، وحطمت الذرة ، وغزت الفضاء ، وقربت المسافات ، واختصرت الزمن ، وسهلت عيش الإنسان على الأرض بصورة كبيرة وغير مسبوقه ، هذا كله صحيح ومسلم به ، وإنكاره مكابرة لا تقوم على أساس ، ولا تقف على قدم ، ولكن هل كل ذلك وفر للإنسان السعادة التى يطلبها ؟ إن العكس هو الذى كان ، فقد الإنسان السعادة وأسبابها ، وضلت البسمة

(1) انظر : نحو فقه ميسر، ص219 وما بعدها، د./ يوسف القرضاوى ، ط1، سنة 1999م ، مكتبة وهبة ، بتصرف .

طريقها إلى وجهه ، وأخطأت الراحة مسارها إلى نفسه ، فهو يسعى وراء الأشياء مهرولاً ، كالذى يتخبطه الشيطان من المس ، إن العلم وحده لا يحقق للإنسان أمناً ، ولا يجلب له راحة ، وإنما لا بد من بعد آخر ، ذلك هو بعد الإيمان بالله سبحانه ، واليقين بالمصير المنتظر بعد هذه الحياة ، هذه هى الآفات التى أصابت النظرة الغربية للإنسان -وغيرها كثير - وهى تجعل من حضارة الغرب وبالأعلى الإنسانية، ووباء خطيراً يجب أن يقاوم من خلال بديل آخر يحترم فى الإنسان أخص خصائصه .

الإنسان نظرة قرآنية :

إذا كانت تلك هى نظرة الحضارة الغربية للإنسان ، فعلى الجانب الآخر تبدو النظرة القرآنية فى أفق رفيع لا يطار لها على جناح ولا يسعى إليها على قدم ، فالإنسان هو المحور الذى يدور الكون من حوله وله خلق الله سبحانه كل شئ ، ومن أجله بعث الرسل وأنزل الكتب ، وجعله مكرماً يستمد كرامته من إنسانيته ، والقارئ للقرآن الكريم يستطيع أن يتبين بيسر مدى اهتمامه بالإنسان بصورة يتيقن معها الجميع أنه كتاب الإنسان ، فالقرآن الكريم كله إما حديث عن الإنسان وإما خطاب إلى الإنسان وإما تصوير للكون الذى خلق من أجل الإنسان ، ويكفى أن نعرف :

(أن كلمة الإنسان تكررت فى القرآن الكريم " 63 ثلاثاً وستين مرة " فضلاً عن ذكره بألفاظ أخرى مثل " بنى آدم " التى ذكرت " ست مرات " وكلمة الناس التى تكررت " 240 مائتين وأربعين مرة " فى مكى القرآن ومدنيّه ، ولعل من أبرز الدلائل على ذلك أن أول ما نزل من آيات القرآن الكريم خمس آيات من سورة " العلق " ذكرت كلمة الإنسان فى اثنتين منها ومضمونها كلها العناية بأمر الإنسان)⁽¹⁾.

هذا هو الأفق العالى ، وتلك هى النظرة التى يجب أن يتسم بها البديل المطلوب ؛ ليحقق للإنسان عيشاً كريماً ، وحياة آمنة ، ويجلب له الأمن الذى يطلبه ، والسلام الذى يريجوه ويتمناه .



(1) الخصائص العامة للإسلام . ص 66 ، د. / يوسف القرضاوى ، مصدر سابق .

الخصيصة الرابعة بديل شامل المنهج

هذه هي الخصيصة الرابعة من جملة الخصائص التي يجب أن تتوفر في البديل الحضاري ، وهي أن يكون شاملاً ، وهذا يعنى شمول المنهج الذى يقدمه للناس متجاوزاً بذلك حدود الزمان والمكان والإنسان ، ويحتم تلك الخصيصة ويؤكد ضرورتها ذلك الالتقاء والتواصل الذى يتمتع به العالم اليوم ؛ إذ فى ظل العولمة أصبح العالم قرية صغيرة ، يقف من يقطن شاطئها على ما يحدث فى جنوبها فى نفس التوقيت دون أن يندّ عنه شئ ، وأصبح حتمياً عند صياغة بديل جديد ، أن يراعى تلك التغيرات التى طرأت على خارطة العالم حتى يكون الخطاب عالمياً شاملاً ، وأمر كهذا يخرج عن نطاق قدرة البشر ، نظراً لاختلاف الثقافات ، وتباين الحضارات ، وتنوع الأجناس ، وانقسام الأعراق ، واختلاف الألسنة ، وتضارب الأهواء ، وتعارض المصالح ، وهو ما يجعل من الصعب - بل من المستحيل - على بشر أو مجموعات من البشر أن تضع البديل الشامل الذى يخاطب الزمن كله والإنسان كله والأرض كلها .

بديل كل زمان :

فلا بد فى البديل المطروح أن يكون خطاباً لكل الأزمان والأجيال ، فلا يخاطب زماناً بعينه ولا جيلاً محدداً ، يبقى ببقائهما ، فإذا ما ذهب ذهب الخطاب على أثرهما ، فلم يبق منه شئ إلا الذكرى - إن وجد أحداً يذكره - إن الخطاب الخاص أصبح غير ملائم لطبيعة العصر الذى نعيش ، ومن ثم لا يوجد بديل يتميز بهذا العمق الزمنى سوى الإسلام ، فهو الرسالة التى امتدت طويلاً حتى شملت آباءة الزمن ، فإذا كتابه آخر الكتب ، ورسوله خاتم الأنبياء ، ورسالته هى آخر كلمات السماء إلى أهل الأرض ، فهو بكل هذا رسالة الماضى ورسالة الحاضر ورسالة المستقبل .

بديل للعالم كله :

ومما يشترط في البديل الحضاري كذلك أن لا يكون محدوداً بمكان ولا خاصاً بأمة ولا بشعب ولا بطبقة ، بل يخاطب كل الأمم وكل الشعوب وكل الطبقات ، وأن يكون رسالة عامة (وليست رسالة لشعب خاص يزعم أنه وحده شعب الله المختار ، وأن الناس جميعاً يجب أن يخضعوا له ، وليست رسالة لأقليم معين يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض ، وتجيئ إليه ثمراتها وأرزاقها ، وليست لطبقة معينة ، مهمتها أن تسخر كل الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو اتباع أهوائها أو السير في ركابها وسواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم من الضعفاء ، من السادة أم من العبيد ، من الأغنياء أم من الفقراء والصعاليك ، إنها رسالتهم جميعاً)⁽¹⁾.

هكذا يجب أن يكون البديل المطروح ، وهو ما لا يتوافر اليوم إلا في الإسلام ، الذي جاء يؤكد من أول يوم أنه رسالة للجميع ، وصدق الله تعالى القائل : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾⁽²⁾.

بديل للإنسان كله :

ولابد في البديل المطروح كذلك أن يخاطب في الإنسان عقله وروحه وجسده ، فلا يبغي جانب من هذه الجوانب على الآخر ؛ لأن البغى هنا يشطر الإنسان شطرين ويقسمه نصفين ، وهو ما يتنافى مع فطرة الإنسان وطبيعته ، فالإنسان عقل وروح وجسد ، ولكل واحد من هذه الجوانب أشواق وآمال ، ورؤى وتطلعات ، فلا بد أن ينال كل منها ما يطلب ، وأن يحصل على ما يريد ، حتى لا يكل ولا ينقطع ، فتتحول معه حياة الإنسان إلى جحيم .

وهناك بُعد آخر من أبعاد الشمول لابد أن يراعى في البديل المطلوب ، وهو أن يلاحظ الإنسان في جميع مراحل حياته ، جنيناً ورضيعاً ، صبيّاً وشاباً ، كهلاً وشيخاً ، وكذلك بعد موته ، وهذا كله لا يتوافر اليوم إلا في الإسلام بشموله الرائع وروعته

(1) المصدر نفسه ، ص 107 .

(2) الأعراف : 158 .

الشاملة التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (1) .

بديل شامل :

إن النظرة الواقعية تؤكد أن الإسلام وحده هو البديل المطلوب ؛ لأنه في حقيقته رسالة الزمن كله ورسالة العالم كله ، ورسالة الإنسان كله ، وفي مختلف مراحل حياته ، فهو نظام (يتناول مظاهر الحياة جميعاً، فهو دولة ووطن ، أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون ، أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء) (2) ، وبهذا الشمول العجيب يقدم الإسلام نفسه كبديل للفوضى القائمة حيث يشتمل على :

1 - أحكام تتعلق بالعقيدة :

والعقيدة في الإسلام بيان واضح ، وتفصيل لكل القضايا الكبرى والكلية التي يحتاج الإنسان لمعرفة حتى تستقيم حياته على الأرض ، حيث تجيب له عن هذه الأسئلة الخالدة خلود البشرية ذاتها وخلود الإنسان نفسه :

من أين جاء ؟

ولماذا ؟

وإلى أين المصير ؟

ثم هي كذلك بيان مفصل لحقائق الإيمان ؛ كالايمان بالله تعالى والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وهذه الحقائق لا غنى للإنسان عن معرفتها من مصدر صحيح ، وعلى حقيقتها دون تزييف أو تحريف .

2 - أحكام تتعلق بالعبادة :

والعبادة في الإسلام تتسم بالشمول ، حيث تستوعب كيان الإنسان كله ؛ إذ إنها لا تتم عن طريق اللسان فقط ، أو البدن فقط ، أو القلب فقط ، أو الفعل فقط ، وإنما

(1) النحل : 89 .

(2) مجموعة الرسائل ، ص 390 ، حسن البنا ، ط 9 ، دار الدعوة .

تستوعب كل ذلك في شمول عجيب وتناسق تام ، وتكامل لا يوجد إلا في الإسلام ؛ إذ فيه ما يعرف بفقه العبادات، وهو الذى يفصل هذا الجانب العبادى بدءاً من الطهارة، ومروراً بالصلاة والزكاة والصيام والحج والذبح، إلى غير ذلك مما يدخل في دائرة العبادات في الإسلام .

3 - أحكام تتعلق بالأخلاق :

وتتميز الأخلاق في الإسلام كذلك بشمولها ، فهى لم تدع جانباً من جوانب الإنسان إلا أحاطت به ؛ جسمياً وروحياً، ودينياً ودنياً، عقلياً وعاطفياً ، فردياً وجماعياً ، ومن ثم ترسم للإنسان السلوك الأمثل في التعامل والحركة، في كل تلك المجالات بدءاً من علاقة الإنسان بنفسه، باعتباره مخلوقاً مركباً من جسد وروح، ومروراً بعلاقاته بغيره، كالزوج والأبوين والأقارب والأرحام ، إلى غير ذلك من الجهات التي يتحتم على الفرد أن يتعامل معها.

4 - أحكام أخرى :

ولا يتوقف شمول الإسلام عند هذا الحد، بل توجد به أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم ، وهو ما يعرف بقانون الأحوال الشخصية، وأحكام تتعلق بمعاملات الأفراد مع بعضهم كالبيع والإجارة والرهن وغير ذلك مما يعرف بالقانون المدني، وأحكام تتعلق بالقضاء والدعوى وأصول الحكم والشهادة وغيرها مما يعرف بقانون المرافعات، وأحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية وهو ما يعرف بالقانون الدولي الخاص، وأحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة المسلمة مع الدول الأخرى في السلم والحرب، وهو ما يعرف بالقانون الدولي العام⁽¹⁾ ، وهكذا في شمول لا نظير له.

كل هذا وغيره يؤكد الحقيقة التي تطرح نفسها، وهي أن الإسلام بهذا الشمول يفرض نفسه بقوة علي خارطة العالم كبديل لهذه الفوضى التي تجزئ الإنسان أجزاء ، وتقطعه أشلاء، ومن ثم تشقيه شقاء ما بعده شقاء.

(1) انظر: أصول الدعوة، ص 53، مد/ عبد الكريم زيدان، مصدر سابق، بتصرف.

الخصيصة الخامسة بديل ينسج بالتكامل

إن البديل المطروح كي يريح الإنسان من شقائه وتوزعه وتشتته ، لا بد أن يكون متكاملًا، وبتعبير آخر ، لا بد أن يكون متناسقًا، وأعني بالتناسق (أن تعمل أجزاء الكل بانتظام وتعاون في خدمة هدف مشترك بحيث لا تري بينها إلا الوحدة والانسجام، كما أنها تتناسق أيضًا مع ما يحاورها أو يتصل بها من أشياء) ⁽¹⁾، هذا هو التكامل أو التناسق المطلوب في البديل الحضاري، وهو لازم من أجل راحة الإنسان واستقراره ، وعدم وقوعه فريسة للحيرة والتخبط والتضارب والتناقض.

ظاهرة كونية:

هذا التكامل أ و التناسق في البديل الحضاري، هو سمة الكون من حولنا، وهو ظاهرة واضحة للعيان في كل ما خلق الله عز وجل ، ففي الكون الذي نعيش فيه يبدو هذا التكامل في أكمل هيئة وأبهي صورة، وبشكل يأخذ بالآبصار ويذهب بالآلأباب ، ففي (الكون نجد ظاهرة التناسق بادية لكل متأمل، في الأفاق وفي الأنفس، في السماوات وفي الأرض ، في خلق الإنسان والحيوان والنبات والجماد، فالكواكب والأفلاك -رغم ضخامتها الهائلة- تسير في مداراتها، وتتحرك حول محاورها منذ ملايين السنين- كما يقول الفلكيون- ولكنها لا تتصادم يومًا بعضها ببعض، بل يعمل كل منها في خطه المرسوم، دون أدنى خلل أو اضطراب أو تعارض مع أجزاء الكون الأخرى) ⁽²⁾ وهذا المعني يتكرر كثيرًا في القرآن الكريم، وفي لوحات معبرة تخلق الآلأباب من روعة تكاملها، وتذهب بالآبصار من دقة تناسقها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلِيلٌ

نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ

(1) مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص 138، د/ يوسف القرضاوي، ط 1، سنة 1991م، مكتبة وهبة.

(2) المصدر نفسه.

أَلْقَمَرٌ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾^(١) وتعليقاً على هذه اللوحة وأمثالها في القرآن الكريم يقول الأستاذ سيد قطب (ولكل نجم أو كوكب فلك أو مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة، فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال، والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتي ألف من الأميال، وهذه المسافات علي بعدها، ليست شيئاً يذكر حين تقاس إلي بُعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا.. وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب، ووضع تصميم الكون علي هذا النحو، ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع - حتي يأتي الأجل المعلوم - فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر، والليل لا يسبق النهار ولا يزحمه في طريقه؛ لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبداً، فلا يسبق أحدهما الآخر ويزحمه في الجريان)^(٢)، بهذا التناسق العجيب يعمل الكون من حولنا، ومن ثم تسير حياة الإنسان بتؤدة وانتظام، وهذا التكامل لا بد أن يتوافر كذلك في البديل الحضاري، حتى تنسجم الحياة - وإلا فان الصدام والشقاق والاختلاف عندها سوف تجني على الإنسان، أو أن كل ذلك سيكون الحصاد المر الذي يجنيه الإنسان.

بين الكون والمنهج:

وإذا كان الكون الذي نعيش فيه متناسقاً يكمل بعضه بعضاً بهذا الشكل الذي يفيض روعة وإعجازاً، فإن المنهج الذي يحكم وينظم حياة البشرية فيه لا بد أن يكون على نفس المستوى من التكامل والتناسق مع الكون كذلك؛ لأن الفطرة الإنسانية في أصلها متناسقة متناغمة مع ناموس الكون، فحين يبتعد الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس الذي يحكم الكون يقع الصدام لا محالة بينه وبين الكون من جهة، وبينه وبين فطرته التي يحملها في أعماقه من جهة أخرى، وهذا الصدام يربك الإنسان أو يجلب له

(١) يس: ٣٧-٤٠.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٩٦، سيد قطب، مصدر سابق.



الشقاء، ويجرُّ عليه القلق والحيرة، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يكون البديل الحضاري سوى الإسلام؛ لأنه المنهج الوحيد الذي يوائم بين فطرة الكون وفطرة الإنسان في تناسق وتكامل عجيبين (والتناسق بين منهج حياة الإنسان، ومنهج حياة الكون هو وحده الذي يكفل للإنسان التعاون مع القوى الكونية الهائلة بدلاً من التصادم معها، وهو حين يصطدم معها يتمزق وينسحق، ولا يؤدي وظيفة الخلافة في الأرض كما أرادها الله سبحانه له، وحين يتناسق مع نوااميس الكون ويتوافق، يملك معرفة أسرارها وتسخيرها والانتفاع بها في حياته، لا ليحترق بنار الكون ولكن ليطبخ ويستدفي ويستضيئ)⁽¹⁾.

إن المنهج الذي يحكم حياة الإنسان لابد إذن أن يكون متناسقاً مع نظام الكون، وهذا لا يتحقق إلا في حالة واحدة، وهي أن يكون الخالق للكون هو الذي وضع منهج الحياة بالنسبة للإنسان الذي يحيا في هذا الكون، وهذا لا يتحقق إلا في الإسلام، فهو المنهج الوحيد اليوم - بكونه الذي يتصف بذلك، أي بكونه منزلاً من عند خالق الكون، وهو ما يحقق الانسجام التام والتناسق الكامل مع الكون وفطرته التي فطره الله عليها. **عجز الخلق وقدرة الخالق:**

لا شك أن مثل هذا التكامل في الفكرة وفي الحركة وفي التوجه لا يمكن أن يتحقق من خلال مصدر أرضي أو بشري؛ ذلك لأن الإنسان بعقله القاصر، وعلمه المحدود ورؤيته الضيقة يعجز عن وضع نظام يتميز بهذا التناسق، وذلك الشمول، ومن ثم فإن الخالق وحده هو (القادر على إعطاء كل شيء في الوجود - مادياً ومعنوياً - حقه بحساب وميزان، فهو الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، وأحاط بكل شيء خبرًا، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة وعلماً، ولا عجب أن يكون هذا التوازن الدقيق في خلق الله وفي أمر الله جميعاً، فهو صاحب الخلق والأمر، فظاهرة التوازن تبدو فيما أمر الله به وشرعه من الهدى ودين الحق أي: في نظام الإسلام ومنجهه للحياة كما تبدو كذلك في الكون الذي أبدعته يد الله فأثقت كل شيء)⁽²⁾.

(1) هذا الدين، ص 26، سيد قطب، مصدر سابق.

(2) الخصائص العامة للإسلام، ص 127، د. / يوسف القرضاوى، مصدر سابق.

إن التكامل بين الكون والمنهج والتناسق بين جزئيات المنهج كذلك أمر لا يدركه البشر، ومن ثمَّ يكون كل منهج بشري يوضع للإنسان محكوماً عليه بالفشل؛ لأنه متأثر بالجهل ومخلوط بالهوى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (1)

فالإنسان إذن لا يمكن أن يشرع لنفسه - فضلاً عن غيره - لأنه أقل إدراكاً، وأضيق علماً من ذلك، ومن ثمَّ يجب أن يرد الأمر برمته إلى خالقه؛ لأنه هو الذي خلق، وهو يعلم من خلق، وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (2).



(1) المؤمنون: 71 .

(2) الملك: 17 .

الخصيصة السادسة بديل ينصف باليسر

بهذه الخصيصة المهمة نختم خصائص البديل الحضاري المطلوب ، وهي خصيصة اليسر ، التي يقوم عليه ، والتيسير الذي يدعو له ، فلا بد للمنهج الذي يتقدم بديلاً عن الفوضى القائمة ، أن يكون ميسراً فلا يفوق قدرات البشر ، ولا إمكانات البشر من ناحية ، كما يسهل على الإنسان التزامه جزئياً وكلياً من ناحية أخرى ، وبتعبير آخر ، لا بد أن يكون بديلاً ميسراً في نفس الوقت ، إذ بالأولى يسهل حمله واستيعابه ، وبالثانية يسهل تنزيله على حياة الناس ، وهذا المعنى لم يعد موجوداً اليوم في مختلف المناهج المطروحة سواء أكانت إلهية أو وضعية ، فبقايا الوحي الموجود بين أيدي الناس بعضها يحمل النفس الإنسانية مالا تطيق ، والبعض الآخر يصعب في الواقع تطبيقه وتحقيقه ، وفي نظريات البشر وأوضاعهم يوجد ما يستعصى حتى على الفهم والإدراك ، فضلاً عن التحقيق والتطبيق ، وكل ذلك لا يصلح أن يكون بديلاً لوضع قائم هو خليط من الوحي الذي أصابه التحريف ووضعيات البشر التي تتسم بالنقص والقصور والهوى .

مناهج تصادم الفطرة :

إن نظرة عجل على بعض المناهج المطروحة ، التي تصوغ حياة الناس وتنظم أوضاعهم توضح بجلاء أن بعضها يبالغ في المثالية حتى يجل عن التطبيق ، وبعضها يغرق في الواقعية حتى النخاع ، فيضطر بذلك لإهمال جوانب مهمة في النفس الإنسانية ، وكلا النوعين من المناهج روثته - أثبتت البشرية من خلال تطبيقات سابقة أثبت بعد التجربة فشلها في التعامل مع الإنسان باعتباره مزدوج الطبيعة ثنائي التركيب ، وإهمال جانب من تكوين الإنسان أمر مرفوض في الواقع ؛ لأنه يسبب للإنسان الحرج والعنت والمشقة ، وهذا ضوء على بعض الممارسات الخاطئة من خلال حقائق تاريخية :

عجائب الرهينة :

إن نظام الرهينة الذي ابتدعه طوائف من الناس في القديم ، جاء إلى الدنيا بممارسات تفوق التصور والوصف ، ممارسات تصطدم بفطرة الإنسان ، وتصادم

نوازعه ، بل تسحق آماله وأشواقه سحقاً ، ومن ثم لم يقو عليه مدعوه ومبتدعوه ، وسرعان ما فقد بريقه ولمعانه ، وصار سبة في جبين أصحابه ، وهذه صورة مصغرة لبعض ممارسات الرهبان في القرون الوسطى ، يرسمها لنا الشيخ أبو الحسن الندوى رحمة الله فيقول : (إن الراهب مكاربيوس نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد ، وكان صاحبه الراهب يوسيبس يحمل نحو قنطارين من حديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزع ، وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ، ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة ، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً ، وإنما يستترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل الكلاً والحشيش ، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ، ويتأثمون من غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس ، يقول الراهب أتهينس : إن الراهب أنتوني لم يقترب إثم غسل الرجل طول عمره...)⁽¹⁾ .

وأنا هنا مضطر لقطع هذه الصورة رفقاً بقارئ هذه الكلمات حتى لا يصاب بالغثيان من هذه النظم أو الممارسات التي أساءت إلى الإنسان والإنسانية وهي تحسب أنها تحسن صنعا ، ولكن التساؤل المنطقي هنا : هل هذا نظام يوافق فطرة الإنسان ويمكن أن يتحملة؟ بالطبع ستكون الإجابة بالنفي وليس مرة واحدة بل مرات عديدة؛ لأن مثل هذه النظم تسير في اتجاه معاكس تماماً للفطرة البشرية التي تأخذ مسارها بوضوح في اتجاه محدد ، ويحقق لها خالقها ، وهو الاتجاه الوحيد الذي يناسبها ويحقق له أمنها وسلامتها .

الطرف المقابل:

حاول الرهبان إذن أن يبالغوا في المثالية - بزعمهم - فتعبوا وأتعبوا ، وضلوا وأضلوا ، وفي المقابل ، أو على الطرف الآخر بالغ أناس في الواقعية فظلموا أنفسهم وظلموا

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص 107 ، مصدر سابق .



معهم بني جنسهم؛ لأنهم كذلك انصرفوا عن فطرة النفس، وفطرة الكون، فكان الخروج الفج على فطرة الأشياء وطبيعة الأشياء، يقول الأستاذ محمد قطب: (والواقعية تتكبد الأحلام عمداً، وتجنح إلى الواقع الصغير المحدود الذي تدركه الحواس، ويبارسه الناس وهم واقعون تحت ضغط الضرورة، لا منفلتين منها ولا مترفعين عليها، واقع المادة وواقع الحيوان، إن هذا الواقع الصغير الذي رسمت حدوده الداروينية القديمة لينيته بالناس عند المطالب القريبة التي تحتتمها الضرورة، ولا يرتفع عن ذلك ولا يحلم بما هو أجمل أو أكمل أو أفضل، ومن ثم يظل مستواه بهبط، ويظل محيطه يضيق في النهاية إلى جعل الإنسان آلة حيوانية يتصرف كما تتصرف الآلة، وينطلق كما ينطلق الحيوان؛ لأنه يعيش بجناح واحد، جناح الواقع⁽¹⁾ وهذا الإيغال في الواقعية -لا شك- سبب للإنسان العنت، وجلب له المشقة؛ لأن فيه بعداً آخر، هو بعد المثال والخيال الذي لا يعيش بدونه، ومن ثم لا بد من بديل يجمع بين الواقع والمثال؛ ليسهل تطبيقه في حياة الناس.

بديل سهل التطبيق:

إن على المنهج المطلوب -إذن- أن يراعي قدرات الناس، ويوافق إمكاناتهم ولن يكون كذلك إلا إذا توافقت مع فطرتهم، مراعيًا أشواقها ومتطلباتها، ومراعيًا كذلك ما يزيحها وما يدسيها، وما يرفعها وما يهبط بها، وهذا كله لا يتوافر إلا في الإسلام؛ لأنه في تعامله مع فطرة الناس (يسير هيناً ليناً، يوجهها من هنا، ويذودها من هناك، ويقومها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها ولا يجهدا كذلك، إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية البعيدة المدى، الأكيدة التحقيق، والذي لا يتم في الجولة الأولى يتم في الجولة الثانية، والذي لا يتم في الجولة الثانية يتم في الجولة الثالثة... أو العاشرة... أو المائة... أو الألف، كل ما هو مطلوب، هو بذل الجهد والمضي في الطريق، وكما تثبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في أعماق التربة، وتتطاوّل فروعها وتشابك كذلك، ينبت هذا المنهج في النفس، والحياة، ويمتد في بطى وفي ثقة وطمأنينة، ثم يكون ما يريد الله أن يكون⁽²⁾ .

(1) منهج التربية الإسلامية، ج 1، ص 148، ط 11، سنة 1988م، دار الشروق.

(2) هذا الدين، ص 37، سيد قطب، مصدر سابق.

بهذا الهدوء والانسحاب، وهذه الثقة واليقين، يتحقق هذا المنهج في النفس، ويستقر في أنحاء المجتمع، يساعده على هذا أنه يتوافق مع الفطرة، ومن ثم فهو سهل التطبيق سهل التنفيذ.

تيسير ويرفع الحرج:

لا بد في البديل إذن أن يراعي فطرة البشر ويلائم طبيعتهم، ويحفظ ضروراتهم، ويحمي أشواقهم، ولن يحقق البديل ذلك إلا إذا كان يتسم باليسر، الأمر الذي لا يتحقق اليوم إلا في منهج الإسلام، حيث يسرى التيسير في أعماقه، كما تسرى العصارة في أغصان الشجرة الحية، الأمر الذي قرره القرآن الكريم وكرره كذلك في مواطن عديدة ومناسبات متنوعة، ومن هنا نلاحظ أن القرآن الكريم نفسه ميسر الذكر، والعقيدة ميسرة الفهم، والشريعة ميسرة التنفيذ والتطبيق وليس فيها تشريع واحد يفوق طاقة الناس، ويتجاوز قدراتهم، والقواعد القرآنية في هذا الباب واضحة مثل قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (1).

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَهَا﴾ (2).

وبعد آيات الصيام يطالع الإنسان قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ

بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (3) ويطالع بعد آية الطهارة

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ (4). وبعد آيات النكاح: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ

أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (5). وفي آية القصاص: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (6).

(1) البقرة : 286 .

(2) الطلاق : 7 .

(3) البقرة : 185 .

(4) المائدة : 6 .

(5) النساء : 28 .

(6) البقرة : 178 .



وحسبنا بعد كل ذلك قول أمنا عائشة رضي الله عنها تصف النبي صلى الله عليه وسلم: (ما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه) ⁽¹⁾.
ويعلق الدكتور محمد عمارة على هذا الحديث بقوله: (فهذا الإثم الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم أبعد الناس عنه هو المرفوض من سمات القطبين المتناقضين؛ لأنه الظلم والباطل والتطرف، والمنحاز بعيداً عن العدل والحق واليسر والاعتدال) ⁽²⁾. بهذه الروح: روح الاعتدال والتيسير يمكن للبديل أن يتعامل مع واقع الناس دون أن يشق عليهم، أو أن يجلب لهم حرجاً، وهو ما لم يعد الناس يطيعونه - خاصة في زماننا - وهم أحوج ما يكونون إلى التيسير في كل حين، وفي هذا الحين على وجه الخصوص.



(1) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ك/ المناقب، باب / صفة النبي ق ج 6، ص 654، عن السيدة عائشة ك، فتح الباري المكتبة السلفية، دار الريان للتراث.
(2) معالم المنهج الإسلامي، ص 81، ط 3، سنة 1998 م، دار الرشاد.

خاتمة

هذه بعض الخصائص التي يجب أن يتصف بها البديل الحضاري المطروح أو المطلوب ، إذ يجب أن يكون - كما ذكرنا - ربانياً في مصدره، وربانياً في وجهته ، وإنسانياً في نزعته، وشاملاً في منهجه ، ومتكاملاً في ذاته متناسقاً مع الكون ومع الفطرة ، وأخيراً لا بد أن يكون ميسراً في تطبيقه ، ميسراً في توجيهاته وأحكامه ، وقد تبين من خلال استعراض تلك الخصائص أنها مجتمعة - ومنفردة كذلك - لا تتوافر كاملة الصورة ، ولا تتحقق مكتملة الرؤية إلا في الإسلام ، ومن ثمَّ كان الإسلام - والإسلام وحده - هو البديل المطلوب ؛ لأنه أولاً هو الذي يتمتع بهذه الخصائص ، ولأنه ثانياً هو الذي يستطيع أن يعيد بناء الإنسان وتكوين الأسرة وإرشاد المجتمع وقيادة سفينة البشرية الحائرة فوق أمواج القلق والاضطراب، نحو شاطئ الأمن ومرافئ الأمان والسلامة ، وهذا ماسوف تبرزه الصفحات المقبلة تحت عنوان : الإسلام كبديل .

